اسم و لقب الأستاذ: وافيه حملاوي

المادة: مناهج دراسة الفلكلور

المستوى: أولى ماستر

التخصص: أدب حديث ومعاصر

المحاضرة الرابعـة: المنهج النّفســي (1)

ترجع جذور الاتجاه النّفسي في تحليل الحكايات الشّعبية إلى المدارس النّفسية التّي عرفها التاريخ الطويل لعلم النّفس، والمقصود بهذه المدارس هو: مدرسة فرويد التّي تُسمّى (مدرسة التحليل النّفسي)، ومدرسة أدلر التّي تُسمّى (مدرسة علم النفس الفردي)، ومدرسة يونغ التّي تسمّى (مدرسة علم النّفس التّركيبي) أو (علم النّفس التّحليلي).

لقد بدأت الخيوط الأولى للاتّجاه النفسي في علم الفولكلور تظهر مع (أدولف شبامر) بنظريته عن (نمط الإنسان الشّعبي)، حيث بدأت الأنظار تتجه إلى ضرورة البحث عن البعد النفسي في دراسة الأدب الشعبي، فقد أوضح (شبامر) أنّ (العوامل الأساسية المحركة للتاريخ الثّقافي لا يمكن دراستها و تحليلها إلا من خلال المظاهر التّي تتّضح فيها المواقف الفكرية والنّفسية الأساسية)؛ ففي داخل كل شعب تُوجد بعض المواقف الفكرية العامة (أو الجماعية) التّي تتطابق مع بعض الجماعات الاجتماعية أو التكوينات الاجتماعية ذات المواقف الفكرية الخاصة. وهو ما جعل الفولكلور يتحول إلى علم يتّخذ من البعد النفسي هاديا له ومرشدا. ثم يعود ويطبق نتائجه تلك في فهم الجماعات الاجتماعية لأبناء تلك الثقافة وتحديدها.

1/ "فيلهما فوندت" Wilhelm wundt وكتابه (علم النّفس الشّعبي):

يرى "فوندت" أنّ الأساطير ليست مجرد قصص خيالية، بل هي نتاج نفسي جماعي، يعكس قيم المجتمع ومخاوفه ورغباته، فهي تكشف عن "اللاّوعي الجمعي" للشّعوب (وهو مصطلح مشابه لما سيطرحه "كارل يونغ" لاحقا)، فالطوفان على سبيل المثال موجود في ثقافات متعدّدة، قد يعكس مخاوف البشرية المشتركة من الكوارث الطّبيعية، ورغبتها في البقاء والتجدّد.

يؤكّد "فوندت" أنّ هناك رموزا في الحكايات (مثل: الأبطال، الوحوش، الرموز الطبيعية)، تُعتبرُ تعبيرات عن حالات نفسية داخلية مثل: الصراع بين الخير والشر والذي يُمثّل صراعًا داخليا من الرّغبات والأخلاق)، فمثلا: تُعدّ شخصية العملاق في الحكايات رمزا للتّحديات الكبيرة التي يُواجهها الفرد أو المجتمع، بينما يرمز البطل الذّي يهزمه إلى قوّة الإرادة البشرية .

يربط "فوندت" بين تطوّر الأساطير، وتطوّر العمل البشري؛ حيث يعتبرها مراحل تقدّمية لفهم العالم:

- ✓ **المرحلة البدائية:** وهي أساطير تعتمد على الخوارق والقوى الغامضة مثل الآلهة التي تتحكم في الطّقس.
- ✓ **المرحلة المتوسطة:** ظهور أبطال أسطوريين يجسّدون القيم الإنسانية مثل "هرقل" في الميثولوجيا الإغريقية.
- ✓ **المرحلة العقلانية:** تحوّل الأساطير إلى فلسفات وأفكار مجرّدة، مثل: مفاهيم العدل والحكمة.

يرى "فوندت" أنّ الحكايات الشّعبية تؤدّي وظائف نفسية واجتماعية مثل:

- ➢ **تعزيز التّماسك الاجتماعي:** عبر نشر قيم مشتركة، مثل التّعاون في حكاية "الشاطر حسن".
- ➢ **تخفيف القلق الوجودي:** عبر تفسير الظّواهر الغامضة، مثل: تفسير الموت عبر أسطورة العالم السّفلي.
- ➢ **تنمية الخيال الإبداعي:** كوسيلة لاستكشاف حدود العقل البشري.

يرى "فوندت" أنّ شخصيات الأساطير: (كالآلهة، الأبطال، الوحوش) تمثل أجزاء من النّفس الإنسانية.

- **البطل:** يمثل الأنا الذّي يواجه التحديات.
- **الوحش:** الذّي يمثّل الرّغبات المكبوتة أو المخاوف اللاواعية.
- **الحكيم:** يمثل الجانب العقلاني الذّي يوجّه البطل.

يشير فوندت إلى أنّ الرموز في الأساطير تختلف باختلاف الثقافات، لكنّها تشترك في بنى نفسية عميقة (مثل الخوف من الموت، الرغبة في الخلود...).

2/ ميدان الثقافة والشخصية Culture and personality

- **الثقافة تصنع الشخصية:**

يرى هذا الميدان أنّ الثقافة -أي العادات، القيم، الطّقوس، الحكايات-هي التّي تشكل شخصية الأفراد، وتحدّد طريقة تفكيرهم وشعورهم وتصرّفاتهم.

- **الحكايات الشعبية والطقوس "مرأة ":**

يُحلّل الباحثون الأساطير والحكايات الشعبية لاستخراج القيم الثقافية التي تشكّل شخصية أفراد المجتمع.

3/ الأنتروبولوجيا السيكولوجية : Psychological Anthropology

تنبني الأنثروبولوجيا السيكولوجية على سؤال مركزي هو:

(كيف تشكّل الثّقافة عقل الإنسان ومشاعره؟ وكيف يشكّل الإنسان الثقافة بدوره؟) بمعنى آخر أنّ العلاقة بين الثقافة والفرد تفاعلية.

كانت المناهج القديمة مثل (الثقافة والشخصية) تركّز على فكرة أنّ الثقافة تحدّد شخصية الفرد، لكنّ الانثروبولوجيا السيكولوجية ترى أن العلاقة بينهما أكثر تعقيدا؛ فالفرد ليس "دمية" تتحكم بها الثقافة، بل هو "فاعل نشط" يشارك من تشكيلها.

4/ التحليل النفسي الفرويدي للحكايات الشعبية:

يقوم التحليل النّفسي الفرويدي للحكايات الشّعبية على التّفسير الجنسي لرموز الحكايات، الذّي استبدل رمزية ظواهر الأجرام السماوية التّي كانت سائدة في القرن التاسع عشر برمزية جنسية (فالحكايات الشعبية والأساطير الخرافية التي كانت قد فسّرت من قبل بأنّها تصّور معركة سماوية والصّراع بين الشّمس واللّيل والعاصفة الرعدية وسماء الصّبح، أصبحت تفسر الآن بأنها تصف المعاناة الشّهوانية للذكر والأنثى، وأصبح البطل الشمسي السابق يفسّر بأنّه ذكر الرجل، وأصبح اللّيل الذّي يحتوي الأشياء يُفسّر بأنّه رحم المرأة).

لقد اعتمد "فرويد" اعتمادا كبيرا على الأساطير والحكايات، والطابو (المحرمات)، والنّوادر، والخرافات في تأييد استكشافه للعقل الباطن.

ويعرض في كتابه (تفسير الأحلام) (عام 1900) نظريته بأنّ الأحلام تعتبر تخفية رمزية عن الرّغبات والمخاوف الكامنة المكبوتة لجنسية الطفولة، وكانت الخطوة التالية من معادلة الأحلام بالأساطير وغيرها من عناصر التراث الشعبي.

وقد وجد "فرويد" في أسطورة أوديب مثالاً ممتازا للرواية الأسطورية الخرافية، التي تُزيح السّتار عن الرّغبات والدّوافع الغامضة المكبوتة عند الأطفال الذّين نموا وأصبحوا بالغين، والطفل الذّكر يعشق أمّه جنسيا، ويحلم بقتل أبيه، وفي الأسطورة تُشبَعُ رغباته على نحو مفجع، هذا هو النّموذج الذّي بُنِيت على منواله كلّ التّشعبات اللّاحقة المتعلقة بدراسة التّحليل النّفسي للتّراث الشعبي.

5/ كتاب (التحليل النّفسي للحكايات الشّعبية) لــ: برونو بتلهايم:

أوضح "بتلهايم" الهدف من كتابه بقوله: (هذا الكتاب يشرحُ أسباب اعتبار الحكايات الشعبية ذات دور مهم وإيجابي في مساعدة الطفل على إتمام نموه الداخلي الخاص)، إذ ذهب إلى أنّ هذه الدّراسة (تريد أن توضّح أن الحكايات الشعبية تساعد الأطفال على تنظيم المشاكل النفسية وضبطها لنموهم وتكامل شخصيتهم).

لقد دافع " بتلهايم" عن رأيه الذي يقول إنّ الحكايات الشعبية مهمة في تربية الطّفل، وهي أحسن من القصص الواقعية التّي تُعدّ بعيدة عن عالم الطفل الداخلي ومشاكله النفسية؛ لأنّ الحكاية الشعبية تجيب -في نظره -عن الأسئلة الوجودية للطفل:

1- من أنا؟ 2 - من أين أتيت ؟

3- كيف خُلق العالم؟ 4 - من خلق الإنسان والحيوان؟

5- ما هو هدف الحياة ؟

فللحكايات الشعبية -في نظره -فائدة تحدّدها وظيفتها :

1- فبواسطتها يتعرّف الطّفل على نفسه ويفهمها بشكل أفضل.
2- تسهم في تربية الطفل وتوجيهه أخلاقيا و تقويمه سلوكيا.
3- تعلّم الطّفل النظام خاصة في بيته.
4- تعالج الحكاية الشعبية مشاكل الطفل الوجودية .
5 - هي أداة لتسلية الطفل.
6- تسهم في تطوير شخصيته وتنميتها.
7- تسعى في المعالجة النفسية للأشخاص.

والدراسة النفسية للحكايات الشعبية تجعلنا نستنتج - في نظره- :

1- أنّ الحكاية الشعبية تعالج القلق الذّي ينتاب الطفل في حياته، مثلا: قلق الانفصال عن والديه.

2 - أنّها تعرض مخاوف الطّفل، الخوف من أن يلتهمه أحد مثلا.

ويؤكد "بتلهايم" أنّ الحكاية الشعبية من وجهة نظر نفسية هي حكاية ذات لغة رمزية تنقل مادة لاشعورية، وهي تخاطب في نفس الوقت الشعور واللاّشعور بمظاهرهما الثلاثة: الهو، الأنا، الأنا الأعلى.

نجاح الحكاية الشعبية يكمن في توحّد الطفل مع بطلها، وليس الانتصار النّهائي للفضيلة هو ما يدعم أخلاقية القصة، بل كون الطّفل يُعجَبُ بالبطل ويتوحّد معه.

يرى "بتلهايم" أنّ الطّفل لا يتماثل مع الطيّب بسبب الفضيلة، ولكن لأنّ وضعية البطل تجد فيه صدى عميقا، فالطفل لا يسأل نفسه، هل لي رغبة بأن أكون إنسانا طيبا؟، بل: من أحبّ أن أُشْبِه؟ وهو يقرّر اختياره بادئا بإسقاط نفسه على الشخصية بملء إرادته.

اعتبر "بتلهايم" أنّ الملك شهريار في (ألف ليلة وليلة)، تجسيد لشخصية خاضعة لــ: (الهو) بشكل مطلق، في حين شهرزاد (الأنا) يهيمن عليها (الأنا الأعلى)، نتيجة ثقافتها و اطّلاعها، و على هذا الأساس يعتبر كتاب (ألف ليلة وليلة) في أحد أبعاده تصويرا لصراع (الأنا الأعلى) مع (الهو) بقصد ترويضها بواسطة الحكايات الشعبية المقدّمة لها، فتساهم كلّ حكاية منها في حلّ عقدة أو مشكلة في الشخصية، بحيث تنبثق (الأنا) من جديد، وتعود الشخصية إلى توازنها.